مجلة كامبريدج للبحوث العلمية

مجلة علمية محكمة تصدر عن مركز كامبريدج
للبحوث والمؤتمرات في مملكة البحرين

العدد ـ ٣٨

تشرين الاول ـ ٢٠٢٤

صدر العدد بالتعاون مع

جامعة المشرق

العراق بغداد . طريق المطار الدولي

CJSP
ISSN-2536-0027

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الثلاثون – تشرين الاول ٢٠٢٤– ربيع الآخر ١٤٤٦
ISSN–2536–0027

أصل اللغة ونشوؤها في فكر السيد محمد باقر السيستاني في كتابه مباني الأصول

م. ثابت رحمن فنيخ العامري
كلية الطب البيطري/ جامعة القاسم الخضراء
abub٣٣١٥١@gmail.com

ملخص البحث
الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتمُّ التسليم على المبعوث رحمة للعالمين محمد (صلى الله عليه وآله)، وعلى أهل بيته الكرام المنتجبين (صلوات الله عليهم أجمعين).
أمّا بعدُ...
فموضوع اللغة الإنسانية ونشوئها من الموضوعات التي شغلت تفكير العلماء؛ كونها تعدّ الوسيلة الأولى في التواصل وعليها يقوم ترابط الجماعة البشرية في ما بينها لإيصال الأفكار التي التدور في خلد كل فرد من هذه الجماعة، وللتعبير عما يختلج في داخلة من مشاعر، لذا تخصص بعض العلماء في دراستها لِيُكوِّن علماً خاصاً بها اسموه علم اللغة، الذي يبحث في نشأة هذه اللغة وتطوره ألفاظها ودلالاتها واختلافها بين أفراد الجماعة البشرية حتى توزعت على لغات متعددة ومختلفة، وممن كان له حض البحث في هذا المجال هم علماء الأصول نظراً لحاجتهم إلى كثير من المباحث اللغوية في توثيق المسائل الأصولية التي يعنون بها، ومن هؤلاء السيد محمد باقر السيستاني (دام توفيقه)، في عرضه لبعض مسائل علم اللغة في كتابه مباني الأصول، إذ يقول في حديثه عن نشأة اللغة والألفاظ اللغوية: ((وقد يتراءى أنّه لا أثر لهذا البحث في علم الأصول، وذلك لأن الأصولي ناظر إلى تحقيق مداليل الألفاظ اللغوية، ولا أثر لمعرفة كيفية حدوث العلاقة بين الألفاظ والمعاني في تشخيص مداليلها، ولكن الواقع أن معرفة نشأة الألفاظ اللغوية والرؤى فيها بما يوجبه من سعة أفق الباحث ذو دخل غير قليل في الحديث العام عن الأوضاع اللغوية وتقسيمها))[١].
فجاء البحث على مبحثين: المبحث الأول: أصل نشوء اللغة وتطور الألفاظ اللغوية، والمبحث الثاني: ثنائية الأصل اللغوي، تلتها خاتمة، وفهرس المصادر والمراجع التي استقى منها البحث مادته.

Abstract
The topic of human language and its emergence is one of the topics that has occupied the minds of scholars. Because it is considered the first means of communication and upon it the human group is based on its interconnectedness in order to convey the ideas that are on the mind of each individual of this group, and to express the feelings that are turbulent within him, so some scientists specialized in studying it to form a special science for it that they called linguistics, which studies In the emergence of this language and its development, its words, its connotations, and its differences between members of the human community, evenIt was distributed in many different languages, and those who had a keen interest in research in this field were the scholars of jurisprudence due to their need for many linguistic investigations in documenting the fundamental issues

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الثلاثون – تشرين الاول ٢٠٢٤– ربيع الآخر ١٤٤٦
ISSN–2536–0027

they are concerned with. Among these is Sayyed Muhammad Baqir al-Sistanani (may his success be long), in his presentation of some issues of linguistics in His book, Principles of Origins.

The research consisted of two sections: the first topic: the origin of the emergence of language and the development of linguistic words, and the second topic: the duality of linguistic origin, followed by a conclusion and an index of the sources and references from which the research drew its material.

المبحث الأول: البحث في نشأة اللغة وتطور الألفاظ اللغوية.

عرضت المصادر جملة من النظريات التي حاولت تفسير نشأة اللغة، وتطورها ألفاظها عبر الزمن، غير أن هذه النظريات لم تصل إلى نتائج قطعية في نشأة اللغة، بل ظلت تحوم حول حقيقة هذه النشأة من ترجيح بعض الآراء وتضعيف بعضها الآخر، أو محاولة جمع أكثر من نظرية لتفسير نشأة هذه اللغة، فكانت نظرية الإلهام أو الوحي الإلهي، أولى هذه النظريات التي ترى أنّ اللغة هي إلهام ووحي إلهي ألهمه الله تعالى لآدم أبي البشرية (عليه السلام)، ودليل أصحاب هذه النظرية قوله تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا}[البقرة:٣١]، ثم جاءت نظرية محاكاة أصوات الطبيعة، التي ترى أصل نشأة اللغة إنّما هي عن محاكاة الإنسان لأصوات الطبيعة المحيطة به، فيستنتج اسماء هذه الأشياء من أصواتها. وغيرها من النظريات الأخرى.

وممن تكلم في هذا المجال السيد محمد باقر السيستاني في كتابه مباني الأصول في المباحث اللغوية فذكر ثلاثة أراء في أصل نشوء اللغة:

الرأي الأول: القائل أنّ اللغة هي إلهام إلاهي وأنّ الواضع الحقيق للغة هو الله سبحانه وتعالى، ودليلهم في ذلك ثلاثة أمور هي:

الأمر الأول: النصوص النقلية المتمثلة في قوله تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} [البقرة:٣١]، وكذلك قوله تعالى: {عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} [الرحمن:٤]، ويرى السيد أن الاستدلال بالآية الثانية على أصل نشوء اللغة ضعيف.

الأمر الثاني: قصة آدم (عليه السلام) وحواء، فهي تقتضي وجود آليه تفاهم وتواصل جاهزة بينهما وهذا الأمر يحتاج إلى نضوج فكري عالٍ ونمو في الأداء وهذه الحالة تحتاج إلى وقت زمني غير قصير.

الأمر الثالث: تعقيد نظام اللغة وجماله وبراعته يمثلان طاقة فوق طاقة البشر على إيجاد هكذا نظام وهذا يفترض أن الموجد للغة والواضع لها هو الله جلَّ وعلا.

الرأي الثاني: يرى أصحاب هذا الرأي أنّ البشر هو الواضع للغة نظراً لما يتمتع به من قابليات تجعله يبدع في إيجاد هذه اللغة شأنها شأن إبداعاته الأخر كونه يتمتع بقابليات ذهنية وأدائية تساعده على إيجاد هكذا نظام معقد للتواصل والتعبير بصورة تدريجية، ودليلهم في ذلك حال الطفل عندما تضعه في بيئة معزولة عن البيئة اللغوية تجده خلال مدة من الزمن يستطيع أن يجد نظاماً لغوياً يعبر به عما في داخله، ويعد هذا النظام لغة بدائية.[٢]

ومن يذهب إلى هذا الرأي الشيخ حسين الحلي إذ يقول: ((ليس في البين جعل لفظ لمعنى ثم يتبعه الاستعمال ليكون ذلك سببا في كون اللفظ حقيقة في المعنى ، بل إنّ سبب ذلك هو ما افيد من إلهام الله تعالى حسبما أودع في الانسان من فطرة التكلم المعبّر عنها في القرآن الكريم بقوله تعالى:{عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} [الرحمن:٤]، وحاصلها أن الغرض الأصلي للمتكلم هو إحضار المعنى أمام السامع ليحكم عليه المتكلم بما يريد، وحيث إنّ ذلك غير ممكن فهو بطبعه يلتجئ إلى التصويت بصوت يرى أنه مناسب لذلك المعنى بحيث يرى أنّ ذلك الصوت إيجاد لذلك المعنى))[٣].

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الثلاثون – تشرين الاول ٢٠٢٤– ربيع الآخر ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

الرأي الثالث: هو الوسطية بين الرأيين السابقين، إذ يرى أصحاب هذا الرأي أنّ اللغة من وضع الإنسان؛ لكنّ هذا الوضع بإلهام إلهي خاص فالإنسان مجهز بقابليات وقدرات وأدوات تكوين اللغة غير أنّ اللغة بما تحمل من حكمة وبراعة وتعقيد واتساع في البلاغة جعلها بعيدة عن كونها ظاهرة بشرية وجدت بحسب المؤهلات التي يحملها البشر دون تدخل خاص من الله تعالى بإلهام الإنسان، ويتضح ذلك من الألفاظ ذات المعاني المتقاربة التي يصعب التفريق بينها كالعلم والفهم والمعرفة والإدراك والكشف وغيرها من الألفاظ ذات المعاني المتقاربة التي يكون المائز بينها فروق طفيفة يصعب إدراكها على الأغلب.[٤]

ومن ذهب إلى هذا الرأي المحقق الطهراني، ووافقه على ذلك الشيخ النائيني غير أنّه أضاف توضيحا لمعنى الوضع إذ قال: ((والحق هو الثالث فانا نقطع بحسب التواريخ التي بأيدينا انه ليس هناك شخص أو جماعة وضعوا الألفاظ المتكثرة في لغة واحدة لمعانيها التي تدل عليها فضلا عن سائر اللغات كما إنّا نرى وجداناً عدم الدلالة الذاتيّة بحيث يفهم كل شخص من كل لفظ معناه المختص به بل الله تبارك وتعالى هو الواضع الحكيم جعل لكل معنى لفظاً مخصوصاً باعتبار مناسبة بينهما مجهولة عندنا وجعله تبارك وتعالى هذا واسطة بين جعل الأحكام الشرعية المحتاج إيصالها إلى إرسال رسل وإنزال كتب وجعل الأمور التكوينية التي جبل الإنسان على إدراكها كحدوث العطش عند احتياج المعدة إلى الماء ونحو ذلك فالوضع جعل متوسط بينهما لا تكويني محض حتى لا يحتاج إلى أمر آخر ولا تشريعي صرف حتى يحتاج إلى تبليغ نبي أو وصى بل يلهم الله تبارك وتعالى عباده على اختلافهم كل طائفة بالتكلم بلفظ مخصوص عند إرادة معنى خاص))[٥]

وبعد ذكر هذه الآراء يرى السيد محمد باقر السيستاني أن التحقيق في هذه المسألة يكون على وجهين:

الوجه الأول: الكلام في نشأة ظاهرة اللغة أي الشرارة الأولى التي أوجبت ظهور وانبثاق اللغة، وفيما يتعلق بهذا الوجه، يرى السيد محمد باقر أن حدوث شرارة هذه الظاهرة هو إلهام إلاهي وتعليم من الله تعالى، لا سيما أن بداية الحياة البشرية كانت بأمر إلاهي وأنّ أول مخلوق هو نبي من أنبياء الله سبحانه وتعالى، وقد ذكر القرآن وهذه المحاورات والمخاطبات التي جرت بينه وبين زوجته وأولاده التي تضمنت المعاني الفكرية والنفسية المعقدة، وأن ما يرد من حكايات في هذا السبيل لا يكون بالضرورة كما هو حال الحكايات عندنا في الوقت الحاضر بعد اكتمال نظام اللغة، بل قد يكون عن مجموعة من الرموز والإشارات الصوتية غير المنتظمة محاطة بمجموعة من القرائن التي تدل على المراد، ويرى أن هذا النوع من الخطاب قد يكون في جميع العوالم الأخرى كعالم البرزخ وعلام الملائكة ويوم القيامة.[٦]

الوجه الثاني: الكلام في نشأة الألفاظ اللغوية المشهورة في اللغات المختلفة، وفما يتعلق بهذا الوجه فيرى السيد محمد باقر أنّ كثيراً من هذه الألفاظ قد نشأ بالوضع التعيّني، وهو أن تكون العلاقة بين اللفظ والمعنى ناشئة عن كثرة استعمال هذا اللفظ في المعنى المجازي أي في معنى آخر فيصبح المعنى الثاني أكثر شهرة واستعمالاً من المعنى الأول لينتقل الوضع إلى المعنى الثاني، ومثال ذلك لفظة (المدينة) في أول وضعها تطلق على كلِّ مدينة وهو الوضع العتيينيّ لها – والمقصود به أنّ العلاقة بين اللفظ والمعنى تكون بجعل خاص ليصدق على أكثر من معنى، فلفظة المدينة بالوضع التعييني تطلق على كل مدينة، غير أنها بالوضع التعيُّني تطلق على مدينة رسول الله (صلى الله عليه وآله)؛ لأن المشهور فيها هذا المعنى وكثر استعماله عند المتكلمين[٧].

ويرى السيد محمد باقر أنّ أغلب الألفاظ قد نشأت بطريقة الوضع التعيُّني، إذ يقول: ((وأمّا ما يتعلق بنشأة الألفاظ اللغوية فإنّه لا شك في أنّ الألفاظ اللغوية المشهورة في اللغات المختلفة قد نشأ كثيراً منها بالوضع التعيُّني وما يشابهه من سبل تطور الألفاظ والمعاني وحجم التطور الدخيل في تكونها وهو بدرجة كبيرة

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الثلاثون – تشرين الاول ٢٠٢٤– ربيع الآخر ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

للغاية، على ما توضحه الدراسات التاريخية والمقارنة والاستقرائية))[٨]، فضلاً عن أنّ هذه الدراسات استطاعت أن تبيّن المراحل التي مرت بها اللغة عبر تاريخها، وبيان الأصل المشترك للغات المختلفة كاللغة السامية التي تضم اللغة العربية والعبرية، واللغة الفينيقية، واللغة الآرامية التي تضم الانكليزية والفارسية وغيرها.

وهذا الأمر يدعو إلى أنّ هذه اللغات كانت ذات أصلٍ واحد غير أنّ أهلها تفرقوا في بيئات لغوية متعددة معزولة عن بعضها، والتطور الهائل والطارئ الذي أصاب تعابيرها بسبب الحاجة التي دعت إليه ظهرت أنظمة لغوية جديدة غير أنّها وثيقة الصلة باللغة الأم، وهذا ما توضحه الدراسات اللغوية التاريخية والمقارنة عند علماء اللغة، مما جعلهم يستطيعون فهم معاني بعض الألفاظ بالرجوع إلى بعضها الآخر، وذلك عن طريق الرجوع إلى الأصول أو الاشتقاقات والحروف الزائدة والمعاني المنظورة.[٩]

فاللغة فيما يراه السيد محمد باقر ظاهرة اجتماعية نفسية حالها حال الظواهر الاجتماعية الأخرى، أي ظاهرة حية تنماز بالحيوية التي تتصف بها الجوانب النفسية الأخرى كالتقاليد والعادات والآداب وغيرها من الظواهر التي تتصف بالتغيّر الدائم وعدم الثبات؛ لذلك يمكنك أن ترى حجم التغييرات التي طرأت على اللغة من بداية الخلق ونشأة الحياة اللغوية عبر آلاف السنين.[١٠]

غير أنّ هذا التطور الهائل الذي أصاب الظواهر اللغوية قد انحسر وصار بطيئاً بعد أن تكون نظام لغوي شبه متكامل استطاع أن يفي بأغلب الحاجات الاستعمالية للإنسان، مما جعله يستغني عن استحداث ألفاظ جديدة ويجمد قدراته على تكوين اللغة، هذا فضلاً عن ظهور الكتابة التي أصبحت من أهم ضوابط اللغة، إذ كان لها الأثر الفاعل في هذا التباطؤ فهي توفر قوالب جاهزة للتعبير يسهل الاعتماد عليها فلا يجهد الإنسان نفسه في إيجاد بدائل لها، بالإضافة إلى النصوص المقدسة التي جاءت بها الأديان والتي كان لها أثر كبير في استقرار اللغة وثباتها، وذلك من جهة الاتصال بها والحفاظ على حيويتها وديمومتها، ومقد مثلت هذه النصوص نسقاً لغوياً محفوظاً، ومن أوضح الأمثلة على ذلك القرآن الكريم في اللغة العربية، والنصوص النبوية، فتجد المسلمين يتواصلون معها تواصلاً شديداً حفظاً وكتابةً، مما جعل التطور في هذه اللغة تطوراً محدوداً هذا من جانب، ومن جانب آخر موقف علماء اللغة مما يُستحدَث من هيئات ومواد لغوية بين الناس، وعدم قبولها على أنّها تطور على الرغم من كثرتها حتى صارت لهجات كاللهجة العراقية واللهجة المصرية والشامية وغيرها، ولو أنهم استجابوا لهذه التطورات التي تطرأ على اللغة لأصبحت اللغة النصوص المقدسة كالقرآن الكريم من النصوص القديمة التي يصعب فهمها كما في الديانات الأخرى.[١١] والأمر ذاته في بعض اللغات كالإنكليزية القديمة المتمثلة بنصوص شكسبير التي يصعب فهمها في اللغة الانكليزية الحديثة دون أن تترجم.

أمّا فيما يتعلق بتكوّن الألفاظ اللغوية فيرى السيد محمد باقر أنّ الألفاظ اللغوية تكون على قسمين: أحدهما ألفاظ مختلقة ويطلق عليها الألفاظ الأولية: وهي الألفاظ التي يكون نشوئها غير متعمد على الفاظ سابقة فيكون الحديث عن هذه الألفاظ من جهة خلقها وكيفية ابتداعها، والقسم الآخر الألفاظ المتطورة ويطلق عليها الألفاظ الثانوية: ويكون الحديث عن هذه الألفاظ من جهة اعتمادها على ألفاظ سابقة قد تطورت عنها ومراحل هذا التطور الذي مرت به هذه الألفاظ.

ويخلص السيد محمد باقر السيستاني إلى نتيجتين في هذا المجال:

إحداهما: إنّ الانسان هو القادر على إنشاء اللغة بما يملك من قابليات، إذ يقول:((إنّ الإنسان كائن مؤهل لتكوين اللغة حسب قابلياته الذهنية والفكرية والنفسية والاجتماعية، ولا يحتاج إلى إلهام خاص كما يُفهم من كلام المحقق النائيني))[١٢].

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الثلاثون – تشرين الاول ٢٠٢٤– ربيع الآخر ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

وتظهر هذه الأهلية عند الطفل في بدء حياته عندما يسعى إلى التعبير عن حاجاته ومقاصده بما يُصدره من أصوات مختلفة محفوفة بجملة من القرائن الإشارية، غير أن هذه المرحلة تنتهي عند الطفل عندما يقوم بتعلم الأدوات اللغوية الجاهزة، لذلك تجدها واضحة في بدايات حياته لا في مرحلة حصوله على النظام اللغوي الجاهز.

الأخرى: ممكن أن تكون اللغة الهاماً غير أنّه محدود، إذ يقول: ((لا مانع من كون نشأت اللغة إلهية إلا أنّ ذلك لا يعني إلا أنّ التوجيه الذهني والعملي إلى الأداء اللغوي كان من قبله تعالى في ضمن بضعة ألفاظ تفي بالحاجات البسيطة في بداية الخلق))[١٣]

ويعقب السيد موضحاً أنّ هذا لا يعني أنّ الألفاظ في عصر تكامل اللغة جميعها في وضعها الفعلي كانت إلهية، بل أنّ أثر الإنسان كان واضحاً فيها وهو ظاهر في عملية التطور التي فرضت سيطرتها على الألفاظ اللغوية، وهذا ما بينته الدراسات التي حاولت البحث في الأصول التاريخية للغات والدراسات المقارنة للغات الأخرى وقياس ما تقتضيه طبيعة الأمور.[١٤]

المبحث الثاني: ثنائية الأصل اللغوي:

مما اشتهر بين النحويين قديماً وحديثاً أنّ الأصل في الألفاظ اللغوية هو الجذر الثلاثي وهذا مذهب أغلب النحويين في كتبهم، غير أنّ هناك من يذهب من النحويين إلى أنّ الأصل في الألفاظ اللغوية هو ثنائي حتى صار هذا الرأي نظرية لها من يتبناها، غير أنّ هذه النظرية لم تكن وليدة العصر الحديث، بل لها أصول في تفكير النحويين القدماء وإن لم يتحدثوا عنها بصورة موسعة أو بتفصيل دقيق، غير أنّهم أشاروا إلى هذه النظرية[١٥].

وذكر الدكتور صبحي الصالح أن من النحويين واللغويين الذين أشاروا إلى هذه النظرية وسعوا إلى إثباتها، هو أبو علي الفارسي وبعده تلميذه ابن جني، إذ قال: ((وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب، وصهيل الفرس ونزيب الظبي ونحو ذلك. ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل))[١٦].

ثم يذكر أنّ ابن فارس قد بدأ مقاييسه في باب الهمزة بالمضعف (أبّ) إذ يذكر أنّ له أصلين، وكذلك سبقه ابن دريد في ذلك، وما ذكراها من أمثلة في هذه الأبواب هو بناء ثنائي بصورة غير صريحة ومباشرة، ولكن يمكن رد الثلاثي إلى أصل ثنائي صريح متحرك فساكن، وكذلك الراغب الأصبهاني من الذين التزم بهذه النظرية في كتابه مفردات ألفاظ القرآن.[١٧]

وصار البحث فيها غير مقتصر على النحويين العرب بل تعدى إلى غير العرب، فكان موضع خلاف وجدل بينهم، ووصل الأمر في هذه القضية أنها ((أثارت جدلاً كبيراً بين علماء اللغة قديماً وحديثاً سواء كانوا عرباً أو غير عرب مسألة جذور المواد اللغوية في اللغة العربية، هل تنحصر في كونها أصولاً ثلاثية ورباعية وخماسية فقط، أم أنّ هناك بعض المواد اللغوية ثنائية الجذور أو أحادية، ... وحديثاً حاول بعض علماء اللغة رد الجذور الثلاثية إلى جذور ثنائية معتمداً على التشابه الدلالي بينها، وهو ما يعرف بنظرية ثنائية الأصول))[١٨]

ويرى أصحاب هذه النظرية أنّ هناك مرحلتين لهذه النظرية هما: الثنائية التاريخية، والثنائية المعجمية، فالثنائية التاريخية: قد نشأة في اللغات السامية القديمة، التي أوضحتها الدراسات التاريخية والمقارنة لتاريخ اللغة وأصولها، فهي ترجع الى تفسير نشأة اللغة الانسانية بمحاكاة أصوات الطبيعة، كتقليد الإنسان أصوات الحيوان، وأصوات مظاهر الطبيعة، أو تعبيره عن انفعالاته الخاصة، أو عن الأفعال التي تحدث عند

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الثلاثون – تشرين الاول ٢٠٢٤– ربيع الآخر ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

وقوعها أصواتا معينة، فالكلام في أول وضعه كان على هجاء واحد، متحرك فساكن، محاكاة لأصوات الطبيعة، ثم زيد فيها حرف أو أكثر في الصدر أو القلب، أو الطرف - فتصرف المتكلمون بها تصرفا يختلف باختلاف البلاد و القبائل و البيئات ، فكان لكل زيادة أو حذف ، أو قلب أو ابدال أو صيغة أو غاية ، أو فكرة دون أختها ثم جاء الاستعمال فأقرها مع الزمن.[١٩]

أمّا الثنائية المعجمية: وهي مرحل نقل هذه الأصول من التاريخ إلى تسطيرها في مؤلفات تضم هذه الثنائية في الأصول على وفق علقة رابطة بينها، ومن أبرز هؤلاء ابن دريد في المجهرة، وابن فارس في المقاييس، والراغب الأصفهاني في المفردات، و((إن أصحاب هذا الرأي لا يعجزهم إيجاد ذلك الرابط ، مهما يكن بعيدا موغلا في التكلف، فقد بدا لهم أن يتقصوا تلك الثنائية وهي تنقل من نطاق التاريخ الى بطون المعاجم، فرأوها أجدر أن تسمى " ثنائية معجمية " وألفوا في كثير من المواد الثلاثية والرباعية أصولا ثنائية زيد عليها صوت أو أكثر، والتمسوا بين صورتها الأصلية المجردة وصورتها المتطورة المزيدة جامعا معنويا مشتركا، حتى اذا وجدوه اقتنعوا بأن زيادة المادة الصوتية ربما أوحت بفارق معنوي جديد ولكنها غالبا تحتفظ بجوهر المعنى الأصلي القديم)).[٢٠]

والكلام طويل وكثير حول هذه النظرية غير أن الذي أريد بيانه هو موقف السيد محمد باقر السيستاني من هذه النظرية، يرى السيد أنّ من معطيات الدراسات التاريخية المقارنة والاستقرائية التأملية داخل اللغة تشير إلى ((أنّ عامة المواد كانت ثنائية في مرحلة لغوية سابقة ثم أصبحت ثلاثية في موجة لغوية لا حقة بأن أضيف عليها حرف ثالث لمعان، نظير إضافة حروف الزيادة على الثلاثي ثم اندمجت في الكلمة)).[٢١]

أمّا الدراسات المقارنة بين اللغة العربية واللغات الأخرى، فتُظهر أنّ الحرفين هما الأصل في المادة؛ وذلك أمّا لأن المادة بقيت ثنائية في تلك اللغة ولم تتطور كما في اللغة العربية، أو أن الحرف الثالث الذي أضيف إلى المادة الثنائية لم يغير المعنى فيها.[٢٢]

فيرى السيد أنَّ أصول الألفاظ كانت في وضعها الفعلي الأولي كانت بسيطة، غير أنّ إضافة بعض الحروف لها بصورة تدريجية، وبشكل شبه منتظم، إذ نبه النحويون على أنّ هذه الزيادة في الحروف تؤدي إلى الزيادة في المعنى، كما هو حال الثلاثي والرباعي، إذ يرى السيد أنّ تكاثر اللغة ناشئ من جانب زيادة الحروف على أصل الألفاظ، فالهيئات اللغوية من الأفعال الثلاثية والمصادر والمشتقات، جميعها ناتجة من قبيل هذه الزيادة، فهي أصوات تمت إضافتها ثم اتُبعَت بشكل منتظم حتى في هيئات لغوية أخرى فصارت نسق يُتبع في الهيئات اللغوية المشابة[٢٣].

فيستظهر السيد محمد باقر السيستاني أنَّ الأصل الثنائي هو الأصوب، إذ يقول: ((الذي يظهر بالمتابعة أنّ الأصوب ملاحظة الأصل الثنائي في استكناه أصل المادة. ونتيجة هذه الدراسات تفضي إلى أنَّ من الحروف الثلاثة ما يكون أساساً جوهرياً ومنها ما يكون زائداً وشبه زائد يؤدي دورا ثانوياً في معنى الكلمة. والذي يمثل الأصل الثنائي تمثيلاً صافياً هو الثنائي المضاعف-كما تقدم في (عصّ)- إذ هو غير مشوب بحرف ثالث مغاير))[٢٤].

فيرى السيد بطلان رأي الصرفيين، في أنّ أصول الكلمة ثلاثية أو ما يزيد عليها في مطلق المواد، حيث أنّ حروف العلة (الواو، الألف، الياء) في أغلب مواضعها غير جوهرية في معظم المواد، وكذلك الهمزة، والـ(ن) التي تستعمل في كثير من المواد للتوكيد مستقلة أو ضمن (إنَّ، وأنَّ)، واللام والميم، وكذلك أحرف الزيادة المعروفة عند الصرفيين، ولأجل استقامة رأيهم في أن أصول الكلمة ثلاثية اضطروا إلى تخريج الكلمات الثنائية نحو: (أب، أخ، دم، أم) وما شابهها على تقدير حرف ثالث، والصواب أنها أصول ثنائية من ركام لغوي في ظاهرة ثنائية اللغة[٢٥].

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الثلاثون – تشرين الاول ٢٠٢٤– ربيع الآخر ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

ويعد السيد الدراسات التاريخية بشقيها الداخلي والمقارن هي السبيل إلى المنطقي الفني والأساس لبيان الكيفية التي تكونت فيها اللغة، وذلك عن طريق ملاحظة اللغة في الدراسة داخلها كما هو حال الحفريات الدالة على وضع اللغة في اليمن والحجاز، وفي الدراسة خارجها في المقارنة بين اللغة التي يراد دراستها مع مقارنتها باللغات الأخرى المشابهة لها في أصولها والبيئة اللغوية، كاللغة العبرية والأكدية والسومرية بالنسبة للغة العربية[٢٦].

فيقول السيد إنَّ: ((هذه الدراسات دليلاً شبه محسوس، لانطلاقها من أسس تاريخية تتعلق بنشأة الأقوام وأصولها القومية المشتركة وحضاراتها وتفاهم أهلها دون وسيط في الحقب التاريخية الأولية، والمئات أو الآلاف من الموارد التي تتطابق في هذه اللغات والتي لا تكاد تكون حالة اتفاقية بحساب الاحتمالات))[٢٧].

أمّا رأيه بالدراسات الاستقرائية داخل اللغة فهو: أنَّ هذه الدراسة تحتاج إلى تعمق كبير في التأمل والاستنباط، ومقارنة واسعة بين المواد اللغوية وبيان مواطن الاتفاق والاختلاف بينها، وعلى أنّ ما يحصل هو بعيد عن احتمال حدوثه صدفة، بعد ملاحظة طبيعة الأمور التي تمر بها اللغة، ومن الواضح أنَّ اللغة لم تمر بهذا الوضع قبل آلاف السنين، ومتى تمت ممارسة هذه الدراسات وفق منهج صحيح متقن كان لها الأثر البالغ في الإقناع بنتائجها، فالباحث لا يقتنع بأيِّ دراسة ما لم ين لها منهج مناسب لطبيعة تلك الدراسة وظروفها[٢٨].

ويرى السيد أن هذا الكلام منطبق على المواد الثانوية في اللغة، أو التغييرات الحاصلة في اللغة بعد تكوّنها، أما المواد الأصلية أو الخام لهذه التغيرات ((فالنظرية الأقرب أنها جميعاً – ما خلا بعض المواد المحدودة التي يُقدر فيها الإلهام الإلهي في نشأة حياة الإنسان، وهي إن لم تكن منقرضة فهي منصهرة في اللغة بحيث أضفي عليها لباس آخر في أثر التغييرات والتصرفات الجارية- كانت في الأصل أسماء أصوات طبيعية مثل ما يخرج من الحيوانات من النهيق والصهيل، أو من الإنسان نفسه في حالات معينة كالتأوه والتأفف والنشيج والبكاء...)) [٢٩].

الظاهر من النص آنفاً أنَّ السيد يرجّح نظرية محاكاة أصوات الطبيعة في أصل نشوء اللغة إذ يعدّها النواه الأولى في هذه النشأة، مستثنياً بعض المواد اللغوية التي يرى أنّها إلهاماً إلاهياً، وأن الإنسان بما يملك من قدرات عقلية أستطاع أن يحول هذه الأصوات الطبيعية ذات الدلالات العامة إلى أصوات لها دلالات محددة عندما ترد يُفهم منها الدلالة الجديدة التي استحدثت، لا دلالتها الأولى التي كانت ترمز إلى طبيعة تكوّنها.

فضلاً عن أنّ السيد يرى بأنّ الجهاز النطقي للإنسان البدائي أو الإنسان الأول لا يختلف عن جهاز النطق عند الحيوان، فيذكر وجود جملة من البحوث والدراسات التي تشير إلى أنّ حنجرة الإنسان البدائي مشابه لحنجرة الحيوان، فضلاً عن اختلافها عن حنجرة الإنسان الذي يتكلم اللغة، غير أنّه لم يؤكد هذه الدراسات ونوه إلى أنها بحوث ودراسات تحتاج إلى مزيد التأكيد، إذ ذكر مجموعة من الشواهد التي تؤيد أصل هذه النظرية.[٣٠]

والشواهد هي:

- إنّ حالة التفاهم بين الحيوانات تتم عن طريق إصدار مجموعة من الأصوات التي تنتج عن شعور خاص لذلك الحيوان، فينتقل الحيوان من هذا الصوت إلى الشعور الذي يصاحبه، وبما أنَّ الإنسان مشترك في هذه الصفة مع الحيوان قبل تطور عقله النظري والعملي، لكنّه بما يملك من القدرة على التطور والإبداع استطاع أن يطور هذه الأصوات بعد تطور عقله النظري بأن حوّل هذه الأصوات إلى نظام لغوي للتعامل، وبتطور عقله العملي حوّل هذا النظام إلى حقوق واستحقاقات مبنية على اللياقة العملية[٣١].

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الثلاثون – تشرين الاول ٢٠٢٤– ربيع الآخر ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

- نظراً لما تمليه طبيعة الإنسان فإنّه فالفرضية تقول أنّه هو مَن ولّد اللغة، وأوجد هذه الألفاظ عامة، وبما أنّ هذه الألفاظ قد مرت بمراحل تطور متعددة، نتيجة التغيير الطارئ الذي يحصل لها، أي أنّ التطور فيها حدث بصورة تدريجية، فكلما عدنا إلى مرحلة سابقة سوف يُفتقد كمال طارئ على هذه الألفاظ، والرجوع إلى مراحل سابقة متعددة سوف يتم الوصول إلى مرحلة الأصوات الاغوية من غير وجود ألفاظ تدل عليها وهو مشابه لحال الأصوات عند الحيوانات.(٣٢)
- نظام التفاهم بين الحيوانات والإنسان، الذي يتم وفق مجموعة من الأصوات التي تصدر عن الحيوانات بصورة تلقائية سيما بعد حلات الضرب، فاستثمرها الإنسان للدلالة على مثل هذه المواقف، فأخرجها من حالة الصوت المحض غير المنتظم إلى حالة اللفظ المنتظم فصارت جزءًا من الألفاظ، ومثال ذلك قولك للحيوان: (هدع) للتسكين، و(سأ) للشرب، و(جوت) للدعاء، (وهج) للذهاب وغيرها من الألفاظ.(٣٣)
- ملاحظة أسماء الأصوات، والتي تم التصريح بها في بعض المعجمات اللغوية، وأن هذا الصوت هو صوت الحيوان الفلاني، أو صوت حادث كذا، وقد تحدث النحويون عن هذه الأصوات في مؤلفاهم وهي تصل إلى العشرات أو أكثر من ذلك، وقد تكون هذه الأصوات مطابقة لمعانيها، كما حال (أوف، أوه)، وقد يكون بعضها غير مطابق تماماً لمعناه كما هو صوت الضفدع (النقيق) فهو غير مطابق تماماً لما يصدر عنه من صوت، غير أنّ هذه الأسماء جميعها هي ناشئة عن أصوات طبيعية.

فيرى السيد على الرغم من رؤية الإنسان وجود تطابق تام بين الأسماء وأصواتها غير أنّ هناك فروقاً دقيقة بينها، ومما يجعل هذه الفروق مغتفرة أو مقبولة جملة من الأمور هي: الانطباع الناشئ عن التلقي السمعي، وقدرات المتلقي السمعية والنطقية، الذوق النفسي للمتلقي الناشئ في أثر البيئة الجغرافية، ((واغتفار هذا التفاوت مما يسوغ على الناظر اكتشاف الأصل الصوتي لسائر المواد، فأصل الأصوات غائمة وعائمة وهلامية، وإنما اللفظ هذا الذي ينميها حسب ملامحها من جهة وميول الإنسان من جهة أخرى)).(٣٤)

يظهر من التأمل في كثير من الألفاظ أنّها أسماء أصوات، على الرغم من وجود اللغة الجاهزة التي تجعل الإنسان يفقد كثيراً ملاحظة التناسب بين هذه الأسماء ومعانيها، غير أنّ التناسب الطبيعي بين هذه الألفاظ ومداليها ما زال موجوداً في كثير من الألفاظ اللغوية والأصوات الطبيعية، نحو (هيهات) صوت يصدر من الإنسان في حال البعد، و (وصه) للسكوت، وهناك كثير من الأصوات التي تصدر عن الإنسان هي نتيجة بعض المواقف والحالات التي يمر بها، كصوت (أوه) في حال الألم، وصوت (أف) في حال الضجر، ومن بعد ذلك تم إعمامها على جميع الحالات المشابهة.(٣٥)

توجد مساحة من التناسب بين الألفاظ ومعانيها عند الإنسان المتذوق للغة خصوصاً الشاعر والأديب، إذ يستطيع أن يهتدي إلى الانسجام الموجود بين اللفظ ومعناه، وهذا الأمر يعد جزءًا من بلاغة المتكلم، الذي يستطيع عن طريق إحساسه أنّ يهتدي إلى الإيحاءات الصوتية الموجودة في اللفظ وأن يخرجها بطريقته الخاصة وأسلوب أدائه المميز، ليستخدمها الاستخدام المناسب مي المواضع المطلوبة، وهذا لا يقدر عليه الناس عامة، على خلاف الأدباء الذين يفجرون البؤر الدلالية للألفاظ، ليولدوا منها صوراً دلالية بلاغية رائعة، وهذه القابلية من الصور الدلالية لا تتحقق في الكلمات، لولا وجود تناسب دلالي بين اللفظ وهذه المعاني المتعددة التي يتوصل إليها الإنسان كلما تعمق اللغة.

لذلك يرى السيد محمد باقر السيستاني أن هذه النظرية على الرغم من استبعاد تطبيقها على عدد من اللفاظ غير أنّها تبقى النظرية الأقرب إلى تفسير نشوء كثير الألفاظ اللغوية، فضلاً عن كونها النظرية الأنسب والأكثر انسجاماً مع طبيعة الإنسان.(٣٦)

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الثلاثون – تشرين الاول ٢٠٢٤– ربيع الآخر ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

الخاتمة

يتضح مما تقدم في البحث عن أصل نشوء اللغة الإنسانية في فكر السيد محمد باقر السيستاني مجموعة من النتائج التي يمكن درجها في الآتي:

١- هناك نوعان من الدراسة في مجال نشوء اللغة الإنسانية، إحداهما: هو دراسة اللغة من حيث النشأة الأولى والشرارة التي منها بدأت هذه اللغة، والأخرى: هو دراسة نشأة ألفاظ هذه اللغة وتطور هذه الألفاظ عبر مراحل التطور المتعددة.

٢- وجود نوعين من الألفاظ اللغوية: أحمدهما ألفاظ أصلية في نشأتها أي أوجدها الإنسان واختلقها غير معتمدة على ألفاظ سبقتها وقد عُبِّر عنها بالألفاظ الأولية، والآخر: ألفاظ ثانوية أو متطورة وهذه الألفاظ تعتمد في وجودها على ألفاظ سابقة قد تطورت عنها وصارت مرتبطة بها دالالياً.

٣- مرور اللغة الإنسانية بمراحل تطور تدريجية مرافقة لمراحل تطور الإنسان في الجوانب الاجتماعية والفكرية والعقلية، حتى وصلت الى ما هي عليه في الوقت الحاضر من مراحل تطورها؛ وذلك كون اللغة حالة نفسية اجتماعية تتماز بالحيوية شانها شأن الجوانب النفسية الأخرى التي تتصف بالتغيّر الدائم وعدم الثبات، كالعادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية المتعددة.

٤- بطء التطور أو انحساره في عدد من اللغات بسبب تكون قوالب جاهزة من الألفاظ التي توفر للمتكلم مواد أولية يستعملها في خطاباته دون بذل الجهد في البحث عن، ومما ساعد على ذلك هو وجود النصوص الدينية المقدسة التي لا يمكن التلاعب بها أو الخروج عنها، كما هو القرآن الكريم عند المسلمين، وباقي الكتب السماوية، هذا فضلاً على أنّها تعدّ حافظاً لهذه اللغات وأداة وصل بين ماضيها وحاضرها والمستقبل.

٥- الألفاظ اللغوية في أصل وضعها ثنائية الأصل، في أكثر موادها، وما يؤكد هذا أنّ هذه الثنائية موجود في معظم اللغات التي ترجع إلى أصل واحد كاللغات السامية، فإنّ الأصل الثنائي موجود في اللغة العربية وأخواتها العبرية والأكدية والسومرية، وهذا يعد دفعاً للأصل الثلاثي الذي يراه الصرفيون في أصل الألفاظ، فإنّ الأصل الثلاثي لا يشكل معظم ألفاظ اللغة كما يرون.

٦- النظرية الأنسب في تفسير نشوء اللغة الإنسانية هي نظرية محاكاة أصوات الطبيعة، مضافاً إليها ما يملك الإنسان من قدرة وقابلية على تطوير هذه الأصوات ونسجها في نظام لغوي منتظم بالاعتماد على قابلياته العقلية النظرية والعملية، هذا بالنظر إلى أصل نشأة الإنسان واستخدامه الأصوات الطبيعية في التفاهم والتواصل في البيئة التي يشترك فيها مع الحيوانات والطبيعة.

المصادر

- القرآن الكريم
- أجود التقريرات، لأبحاث آية الله ميرزا محمد حسين النائيني، السيد أبو القاسم الخوئي، تحقيق ونشر: مؤسسة صاحب الأمر، قم المقدسة، الطبعة الثانية، ١٤٣٠ه.
- أصول الأسماء الثنائية، نهلة حسين إمام، مجلة علوم اللغة، المجلد السابع، العدد الثالث، ٢٠٠٤.
- بحث الأصول: عبد الكريم فضل الله، موقع مدرسة الفقاه، (مقال).
- تحرير الكفاية تقرير لأبحاث كفاية الأصول بأسلوب ميسر، حبيب الكاظمي، دار الولاء، بيروت-لبنان،٢٠١٣.
- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت ٣٩٢هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة، ١٤٣١ه.

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الثلاثون – تشرين الاول ٢٠٢٤– ربيع الآخر ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

- دراسات في فقه اللغة- صبحي الصالح، ، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، بيرت-لبنان، ٢٠٠٩م.
- دروس في علم الأصول، محمد باقر الصدر، إعداد وتحقيق اللجنة التابعة للمؤتمر العالمي للإمام محمد باقر الصدر، مطبعة شريعت-قم، الطبعة الثامنة، ١٤٣٦ه.ق.
- فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، دار الفكر للطباعة والنشر، سوريا-دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٦٤م.
- مباني الأصول، تقرير أبحاث السيد محمد باقر السيستاني، بقلم أمجد رياض ونزار يوسف، د.ط.، ١٤٣٤ه.
- معجميات عربية سامية، أ. س مرمرجي الدومنكي، مطبعة المرسلين اللبنانيين، جونيه-لبنان، ١٩٥٠.

الهوامش

[١]) مباني الأصول: ٣٦٣.

[٢]) ينظر: مباني الأصول: ١/ ٣٦٤.

[٣]) أصول الفقه: ١/٣٨.

[٤]) ينظر: مباني الأصول: ١/ ٣٦٤.

[٥]) أجود التقريرات، آية الله ميرزا محمد حسين النائيني: ١/ ١٩.

[٦]) ينظر: مباني الأصول: ٣٦٦-٣٦٧.

[٧]) ينظر: دروس في علم الأصول، محمد باقر الصدر:٢١٩، وتحرير الكفاية، حبيب الكاظمي: ١/٣٧. وبحث الأصول: عبد الكريم فضل الله، موقع مدرسة الفقاه، (مقال).

[٨]) مباني الأصول: ٣٦٧.

[٩]) ينظر: مباني الأصول: ٣٦٧.

[١٠]) ينظر: مباني الأصول: ٣٦٨.

[١١]) مباني الأصول: ٣٦٩.

[١٢]) ينظر: مباني الأصول: ٣٦٦-٣٦٧.

[١٣]) مباني الأصول: ٣٦٩.

[١٤]) ينظر: مباني الأصول: ٣٦٩.

[١٥]) ينظر: معجميات عربية سامية، أ. س مرمرجي الدومنكي: ٥.

[١٦]) الخصائص: ١/٤٧-٤٨.

[١٧]) ينظر: دراسات في فقه اللغة: ١٥٣-١٦١.

[١٨]) أصول الأسماء الثنائية، نهلة حسين إمام: ٢٥٦- ٢٥٧، مجلة علوم اللغة، المجلد السابع، العدد الثالث، ٢٠٠٤.

[١٩]) ينظر: فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك: ٢٩-٩٤.

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الثلاثون – تشرين الاول ٢٠٢٤– ربيع الآخر ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

[٢٠] دراسات في فقه اللغة، صبحي الصالح: ١٥٣.
[٢١] مباني الأصول: ٣٧١.
[٢٢] ينظر: مباني الأصول: ١٣٧.
[٢٣] ينظر: مباني الأصول: ٣٧١.
[٢٤] مباني الأصول: ٣٧٣.
[٢٥] ينظر: مباني الأصول: ٣٧٣.
[٢٦] ينظر: مباني الأصول: ٣٧٤.
[٢٧] مباني الأصول: ٣٧٣.
[٢٨] ينظر: مباني الأصول: ٣٧٥.
[٢٩] مباني الأصول: ٣٧٥-٣٧٦.
[٣٠] ينظر: مباني الأصول: ٣٧٦.
[٣١] ينظر: مباني الأصول: ٣٧٦.
[٣٢] ينظر: مباني الأصول: ٣٧٦-٣٧٧.
[٣٣] ينظر: مباني الأصول: ٣٧٧.
[٣٤] مباني الأصول: ٣٧٨.
[٣٥] ينظر: مباني الأصول: ٣٧٩.
[٣٦] ينظر: مباني الأصول: ٣٨٠.

CAMBRIDGE SCINTIFIC JOURNAL